

درّس بالمدرسة الطاهرية وابن الملّقن - درّس بالبقرية والسابقية - وقوام الدين الاتقاني، درسّ بالمر غتمشية - وابن حجر المسقلاني بالمؤيدية - وابن خلدون بالأزهر. وغيرهم كثيرون، وما من مدرس من هؤلاء إلا وهو ضليع في علمه. وكان من بين هؤلاء الشيوخ من بلغ منصب القضاء الأكبر، غير أنهم كانوا يتأبّون على المناصب والقضاء، خشية الفتنة أو الزلل، بينما هم يتزاحمون على التعدى للتعليم، وهم يعتقدون أنه أفضل قرية يتقربون بها إلى الله، وأنه فرض عليهم للعلم يجب أدائه.

وكانت دروسهم جدلاً أو إملاء، غير أن الجدل كان أوسع نطاقاً، وأبعد آفاقاً، فولد في كثير من الطلاب روح النقد، وحسن الموازنة وسلامة الاستدراك، والاقتدار على المناظرة. وكان على الطالب - قبل أن ينقطع لطلب العلم بهذه المدارس - أن يمر بمكتب من المكاتب يحفظ فيه القرآن، ويتعلم الكتابة والقراءة. ثم يأخذ نفسه بحفظ عدد من كتب العلوم المختلفة التي ينوي دراستها، ليكون حفظه سنداً له، وقوة على استحضار نصوصها، ومناقشتها، وفهمها، ونقدها، والاستدراك عليها - وكان عليه بعد حفظها أن يسمعها لبعض شيوخه، ليتثبت من حفظها، وكان هذا بمثابة اختبار له - على أن بعض الشيوخ كان يختبر طلابه، إذا زایلوا مكاتبهم، ليندمجوا في حلقة، فقد روى السبيكي في طبقاته عن الحافظ شمس الدين الذهبي "أنه عند ما قدم إلى القاهرة، ودخل إلى شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد - وكان المذكور شديراً التحري في الاسماع - قال له: من أين جئت؟ قال: من الشام، قال: بم تعرف؟ قال: بالذهبي. قال: من أبو طاهر الذهبي؟ فقال له: المخلص. فقال: أحسنت. فقال: من أبو محمد الهلال؟ قال: سفيان بن عيينة. قال: أحسنت، اقرأ، ومكنه من القراءة عليه حينئذ، إذ رآه عارفاً بالأسماء".

وكانت لهذه المدارس ومكاتب جميعاً آداب تُراعى، وتقاليد تتبع، كلها ترمى إلى تقديس العلم واحترام المعلم ورعايه المتعلم، ويضيق المقام هنا، لو ذهبنا نعدد هذه